فصل من رواية :

الكتاب والحياة ...

بقلم الدكتور سهيل ادريس

ـ الاستاذ سامي ؟ (*)

ورفع رأسه عن الاوراق ، فرآها واقفة امام الباب ، وأصابعها ماتزال معلقة في الهواء ، بعد ان دقت دقا خفيفا لم يكد يسمعه . وأحس بانه ينهض قليلا عن كرسيه ، وهو يهز رأسه علامة الايجاب . واذ الفاها مترددة في الدخول ماتزال ، قال في هدوء :

ـ تفضلي يا آنسة .

فتقدمت على مهل ، وقد ضمت الى صدرها ما كان في يدها من كتب ، وجلست على الاريكة المجاورة للمكتب. وما لبثت ان أجالت نظرها في ارجاء الغرفة جولة سريعة، كأنما تلتمس في اركانها الفة تزيل مابها من تردد ، ثم استقر نظرها عليه لحظة أطول ، فتحرك قليلا ليشعرها ، او يشعر نفسه ، بانه يختلف عن تلك اللوحة التي لمحتها على الجدار ، او تلك الكتب المرصوفة في المكتبة ، او ذلك الكرسي ، او هذه الطاولة ، ولم يقتنع بان تلك الحركة اليسيرة كانت كافية لاقناعها بانه لم يكن هو ايضا قطعة من ذلك الاثاث ، ففكر بالنهوض ، وهم بان يقول شيئا يبدد ذلك الصمت الذي بدأ يحس الان بانها كانت تجلبه معها ، وتحمله في شفتيها كما تحمل تلك الكتب في يدها ، ولكنه فوجيء تلك اللحظة برؤية عينيها السوداوين .

ولم يكن على يقين : أكان هذا السواد الليلي في طبعهما ام ان بياض ثوبها الناصع هو الذي حسم ذلك السواد وأكسبه عمقه ؟

ورآها تخفض نظرها فجأة وقد تورد خداها ، فلاحظ اذ ذاك ان وجهها كان خاليا من آثار الزينة ، وان شعرها كان مسرحا في غير ما عناية ، وكان يوحي بشيء من التوحش .

وكان يوشك ان يسألها حاجتها من الزيارة ، تخفيفا لجو الصمت الذي بدأ يثقل بينهما ، ولكنها سبقته الى القول :

ـ سألت عنك في الغرفتين المجاورتين اولا .. ولكني كنت افاجأ كل مرة بنظارتين صارمتين ..

فابتسم قليلا وقال :

ـ انهما شريكاي في المجلة .

قالت : ـ لقد حزرت ذلك .

وصمتت لحظة ، ثم اضافت :

ـ اريد الاشتراك في المجلة ، فمن هو المدير ؟

فأحس بالخجل ، وابتسم في داخله ابتسامة سخرية : انه هو المدير ورئيس التحرير والمحاسب والمصحح ...كل ذلك في وقت واحد . وسارع يجيب :

ـ سأنظم لك انا نفسي اشتراكا ، مادمت الان هنا .

ـ شكرا .

وفتح درجا في مكتبه ، وهو يتفادى النظر اليها مايدريني الا يكون على شفتيها الان ظل ابتسامة يعلن انها فهمت وان ظلت صامتة ؟

ـ ارجو ان ترسل المجلة على العنوان التالي : المزرعة، شارع النصر .

وقال في شيء من المرح :

ـ عرفنا العنوان ، اما الاسم ...

فابتسمت في شيء من الحياء ، وقالت وقد عاد الدم يورد وجنتيها :

ـ عفوا .. اسمي الهام مرتضى .

وكتب الاسم والعنوان على قسيمة الاشتراك ، ثم رآها تتناول من على مكتبه نسخة من العدد الاخير من المجلة ، فتقلب صفحاته في صمت ، وما تابث ان تنظر اليه قائلة :

ـ انني اتابع المجلة منذ عامين ، منذ صدور العدد الاول ...

ـ وهل انت راضية عنها ؟

فأجابت في هدوء :

ـ تناقشت اليوم طوال ساعة حول منهج المجلة مع الشاعر هاني الغريب ، هل تعرفه ؟

فهز رأسه من غير ان يجيب ، كأنه لم يشأ ان يقطع حديثها ، واستطردت موضحة :

ـ انا من سكان بعلبك ، وقد ركبت بالمصادفة سيارة التاكسي التي كانت تقل الشاعر الى بيروت ، وتحدثنا في الادب ، فسألته عن المجلة ..

قال وهو يتكلف الاهتمام :

ـ وما رأيه فيها ؟

فأجابت بلهجة استياء :

ـ انه يأخذ عليها ما اعتبره ميزتها الرئيسية ، وهي انها تلتزم القضية العربية بكل أبعادها ، لاتفرق بين السياسة والاجتماع والفكر .

فنظر اليها في شيء من الدهشة المعجبة : انها تهتم بالادب اكثر مما تحتمله طالبة ، وأية قارئة دؤوبة هي بعد !

ورأى عينيها ، عينيها السوداوين ، تشعان ببريق جديد وهي تقول في لهجة استنكار :

ـ ولكن هل تصدق انه ينكر على المجلة ان تكون « عربية » ويريدها ان تكون « لبنانية » فحسب ، كما لو ان الامرين متناقضان كل التناقض ؟

قال في بسمة عاقلة :

ـ ليس هذا بالجديد . فتلك هي عقيدة فئة من

(*) فصل من رواية جديدة .

اللبنانيين تعاني مايمكن ان نسميه بـ « عقدة الشبـــح العربي » !

فضحكت واضافت تقول :

ـ ثم انه يأخذ على المجلة ان تهتم بالسياسة ، ويقول ان المفروض انها مجلة ادبية . .

فسارع يسبقها الى اتمام العبارة :

ـ كأن المفروض بالادب ان لايهتم قط بالسياسة !

وصمتا لحظة ، ثم استطردت :

ـ لقد ظللنا طوال الطريق نناقش هذا الموضوع ، حتى خشينا ان نزعج سائر الركاب ، فاضطررنا الى التحـدث بما يشبه الهمس ، وقد احسست في آخر الامر ان الشاعر هاني الغريب يكن في داخله تعصبا حقودا يغلفه بهـــذه الانتقادات التي يحاول ان يلبسها لباس التجرد الفكري . .

وحين كفت عن الكلام قال معلقا :

ـ هذا ممكن جدا . . والواقع . . .

فسارعت تقاطعه ، كأنها لم تسمعه ، او كأنما كانت تعد بقية فكرتها ، حتى اذا تمت لها ، نطقت بها جملة واحدة :

ـ ولا ادري لماذا احسست بضيق شديد بعـد ان تركنا السيارة وافترقنا ؟ . . لقد رأيتني بعد لحظات امام المكتبة التي اتردد عليها ، فسألت صاحبها عن ادارة هـذه المجلة ، وشعرت اني مسوقة بقوة خفية الى هنا .

ثم صمتت فجأة ، وبدا على وجهها قلق وتردد ، كأنما

صدر حديثا :

زوجة احمـد

عشتم اروع ساعات المطالعـة وامتـع روايـات الشاشة مع كاتبكم المفضل:

احسان عبد القدوس

ولكنه اليوم في انتاجه الجديـد

زوجة أحمد

سيجعلكم تهتفون رائع ، رائع ، حقـا !
لون جديد من القصص البناء . . . .

فتح احسان فيه خفايا قلبه ليروي احب قصة عاشها
اطلبها من الناشر مكتبة المعارف في بيروت ص.ب ١٧٦١

الثمن ٣٠٠ ق.ل

أحست بندم مباغت ان تنطق في غير ماتحفظ ، بكل هذا الذي خطر في بالها ، وتدفقت الحمرة مرة اخرى تصبغ وجنتيها ، فتشعره بما كانت تعانيه من حرج وارتباك . والفى نفسه يقول :

ـ لاشك في ان زيارتك يا آنسة تعني التعبير عـــن تاييدك للمجلة وتضامنك مع خطتها . . وانا لا يسعني الا ان اشكرك على هذا الموقف الواعي .

فابتسمت في خجل ، ومدت يدها تلامس شعرهـا الاسود ، فأحس كأنما قد سري عنها ، وقال لها :

ـ أتسمحين الان بان تقبلي المجلة على سبيل الهدية ، لا على سبيل الاشتراك ؟

فعاودها الارتباك ، وتناولت محفظة صغيرة كانـت تسندها فوق الكتب ، ففتحتها وهي تقول :

ـ لا ، انني اشكرك ، ولكني لااستطيع ان اقبـــل المجلة هدية . .

مكافأة على موقفها ؟ انها على حق اذن بان ترفض . اما كان الاجدر بي ان اوفر عليها هذا الشعور ؟

ورآها تمد يدها بقيمة الاشتراك ، فلم يشأ ان يلح ، وأحس بضيق في صدره ، تفاقم شيئا فشيئا اذ رآهـا تنهض ، ولكن سرعان ماتبدد هذا الضيق حين وقع بصره على نسخة من روايته الاخيرة كانت ملقاة على مكتبه ، فأسرع يتناولها وهو يقول :

ـ اما هذه . . فلن تعتذري عن قبولها هدية !

فاشرق وجهها :

ـ كلا . . انني اقبلها مع الشكر ، لقد قرأت نقدا لها ، ولكني لم اقرأها بعد .

قال وهو يمدها لها :

ـ حسنا . . سيتاح لي اذن أن اعرف رأيك فيها . . يبدو لي ان لك ذوقا ادبيا مرهفا . .

وأزعجه هذه المرة ان يراها وقد عاودها التـــورد والخجل : أتراها لم تجتمع قط برجل ؟ او تراها تعيش فحسب بين صفحات الكتب ، من غـير ان تنشـق عبير الحيـاة ؟

ونهضت تستأذنه ، وبسطت له يدها ، فقام يودعها ، وحين نظر مرة اخرى في عينيها ، أغضت ، واستدارت على عقبيها . واتجهت الى الباب ، فرأى تقوسا يسيرا فـي ظهرها . وقال في نفسه : « اجل ، هو الكتاب ، ان بهـا حاجة الى ان تستقبل الحياة بصدرها . » وكانت على وشك ان تخرج حين سألها :

ـ هل نراك ثانية ؟

فالتفتت نحوه ، فاذا هي تطالعه بوجه جانبي لم يعرفه فيها اذ كانت جالسة قبالته ، كان وجها دقيقا ذا خطوط حاسمة وانف صغير وزاوية مغموزة لدى الشفتين ، وسمعها تقول وهي لاتكاد تنظر اليه :

ـ أنني نادرا ما اهبط من بعلبك في اثناء الصيف .

فتساءل : ـ ولكن العنوان الذي اعطيتني ايـــاه هو في بيروت ؟

قالت وقد استدارت اليه ، فاطل عليه وجهها الذي يعرفه :

ـ نعم ، ان مكان اقامتنا في بعلبك ، ولكني انزل بيت اختي ببيروت اثناء الشتاء ، لاتابع دراستي الجامعية .

فمشى اليها ببطء ، كأنما يغريها بالبقاء فترة اخرى ، وسألها :

ـ في اي معهد ؟

قالت وهي تنظر الى كتبها وتنسقها على صدرها :
ـ سألتحق بالاكاديمية اللبنانية في العام الدراسي القادم .

وأحس بخفق فجائي في صدره ، وانفتل يواجه النافذة التي كانت ازاء مكتبه ، ثم مد اصبعه يوميء به :

ـ هناك .. تلك هي الاكاديمية اللبنانية !
فرآها تسير بضع خطى في اتجاه النافذة وهي تقول:
ـ صحيح ؟انها اذن ..

والتفتت اليه من غير ان تتم . ورأى عينيها تغتلمان، فتسبل عليهما جفنيها لحظة . انها لم تجرؤ على ان تقول الكلمة : « قريبة » ، وحين فتحت عينيها تنظر اليه من جديد ، أخذه احساس بالضلوع في ذنب .

وتراجع الى مكتبه ، فلمح الكتاب . « لقد نسيته على الطاولة » . وتناوله ففتح صفحته الاولى ، واخذ قلمه وهو يقول :
ـ سأكتب عليه الاهداء .
فسارعت تمد يدها تريد ان تأخذه ، وقالت في ارتباك :
ـ لا .. افضل الا .. تكتب عليه .. شيئا .
فرفع رأسه :
ـ ولماذا ؟
فتمتمت دون أن تنظر اليه :
ـ هكذا ... افضل ...
واحس بذلك الغضب الذي يولد في صدره حين تخيب رغباته ، وما يلبث ان يتحول الى مايشبه الحقد ، وقال وهو يحس في خديه الحرارة :
ـ اذن تستطيعين أن تشتريه من السوق .
ونظر اليها ، فاذا على شفتيها بسمة لم يعرف لها تفسيرا : أكان فيها خجل وندم ، ام كان فيها رثاء له ؟ ثم قالت :
ـ حسنا ، لابأس .
وأحس بالخيبة تغمره ، وادرك بسرعة ان الامر قد انتهى ، فوضع القلم على المكتب ، وهم بالنهوض ، فسمعها تقول :
ـ قلت لك لابأس ..
ثم مدت يدها فأدنت منه الكتاب . وفهم انه فسر عبارتها تفسيرا خاطئا ، فسارع يكتب عبارة اهداء رصينة وهو يقول :
ـ يهمني ان اعرف رأيك في الرواية .
وانفرجت اساريره ، فقالت :
ـ ولكني لاادري متى اهبط بيروت مرة ثانية ..
قال في لهجة واثقة ساءه فيما بعد ماكانت تنم عنه من غرور :

ـ لابد ان تهبطيها ذات يوم .
ثم اضاف ضاحكا ،
ـ وانت تعرفين الان الطريق !

وفاجأها وهي تنظر ثانية ، عبر النافذة ، الى بناء الاكاديمية ، فظل لحظة يتأمله ، وفي صدره نشوة خفية، وحين التفت ، رأى الباب يبتلع شعرها الاسود وثوبها الابيض .

سهيل ادريس

منشورات
لجنة التأليف المدرسي ـ بيروت

- **المروج** : سلسلة حديثة مصورة في القراءة العربية (ستة اجزاء)
- **مراحل القراءة** : سلسلة جديدة مصورة في القراءة العربية (خمسة اجزاء) .
- **الجديد في دروس الحساب** : سلسلة حديثة مصورة في الرياضيات (دفتران لحدائق الاطفال وخمسة اجزاء)
- **الجديد في دروس الاشياء** : سلسلة حديثة مصورة في العلوم (اربعة اجزاء)
- **الجديد في قواعد اللغة العربية** : سلسلة حديثة مصورة في قواعد اللغة العربية (اربعة اجزاء)
- **كيف اكتب** : سلسلة حديثة مصورة في الانشاء العربي (اربعة اجزاء)
- **الجديد في التاريخ** : سلسلة حديثة مصورة في التاريخ ، تأليف الدكتور عادل اسماعيل ـ (ثمانية اجزاء)
- جغرافية العالم للجغرافي الشهير الاستاذ دادلي ستامب (اربعة اجزاء)
- **المطالعة التوجيهية** : سلسلة مصورة في المطالعة والاداب (اربعة اجزاء)
- **التعريف في الادب العربي** : سلسلة مستحدثة في الادب العربي حسب المنهج الرسمي الجديد للاستاذ رئيف خوري (جزءان)
- **نصوص التعريف** : عصر الاحياء والنهضة (١٨٥٠ ـ ١٩٥٠) للاستاذ رئيف خوري
- اعلام الفلسفة العربية : اوفى المؤلفات في موضوعه ، ويقع في ١٠٧٢ صفحة من الحجم الكبير تأليف الدكتور كمال اليازجي والدكتور انطون كرم
- **الجديد في الخط العربي** : سلسلة حديثة في الخط العربي بقلم الخطاط الاستاذ كامل البابا (خمسة دفاتر)
- **الجديد في الرسم** (ستة دفاتر)
- **بيوت وازهار** : كتاب في مباديء المطالعة ، تأليف الاستاذ رشاد العريس